في الذكرى الرابعة لـ 11 أيلول، هل لازالت القاعدة قادرة على المواجهة؟

16-9-2005

وتعتبر الإستراتيجية غير المباشرة من الإستراتيجيات الدولية المعاصرة، ومضمونها: تفادي الدخول في مواجهة مباشرة أو حاسمة مع العدو انتظارا لظروف تكون أكثر ملائمة، وتعتمد الإستراتيجية غير المباشرة على توريط الخصم في معارك جانبية بصورة أساسية تستنزف قواه وموارده وترهق معنوياته وتنال من صلابته وتماسكه وتضعف من إمكاناته وقدراته في أماكن المواجهة الرئيسية.

بقلم علي حسين باكير

في مثل هذا اليوم ومنذ أربع سنوات، قام تنظيم القاعدة الذي يتزعّمه أسامة بن لادن بتوجيه ضربة قاسمة للولايات المتّحدة الأمريكية في العمق الأمريكي الذي لم يصل إليه أي أحد منذ الاستقلال الأمريكي، وقد تسبّبت هذه الضربة بذهول مدوي في جميع أنحاء العالم الذي كان يرقب الحدث بتفاصيله دقيقة بعد أخرى. كثير من الخبراء وصفوا الهجوم بالتاريخي ومنهم من وصفه بالزلزال ومنهم من وصفه بالكارثة التي ستغيّر وجه العالم والتاريخ، بحيث يمكن التمييز بين ما قبل وما بعد 11 أيلول.

منذ ذلك الوقت والولايات المتحدة الأمريكية تعيش هاجس ما يسمى الإرهاب، وقد جندت وحشدت كل طاقاتها واستنفرت أصدقائها وحلفائها لمكافحة وشنت حرب عالمية على ما يسمى الإرهاب، وقد احتلت الولايات المتحدة خلال الثلاث سنوات الماضية بلدين مسلمين ودمرتهما تدميرا، وهما أفغانستان

والعراق ونصبت عليهما ثلّة من رجالها المخلصين كعادة الاستعمار في تنصيب عملائه بعد احتلال البلد.

كما سنّت العديد من القوانين إلى جانب حلفائها من الدول الأوروبية والعربية التي تبيح لها التنصت ومراقبة أي إنسان في أي مكان وزمان، وتلك التي تراقب عملية انتقال الأموال وأخرى التي تمنع حرية السفر والانتقال، وتلك التي تجيز الاعتقال بمجرد الشبهة وحتى بدونها. ليس هذا فقط،بل سنوا مؤخرا قانونا يجيز متابعة جميع ما ينشر على الانترنت والصحف والمجلات عن القاعدة وقمع كل من يتعاطف معها ومع أفكارها ومع الجماعات الجهادية الأخرى مثل حماس، الجهاد وغيرها من حركات المقاومة. كل ذلك لمكافحة ما يسمى الإرهاب وللقضاء على تنظيم القاعدة.

في هذا التقرير نرصد جزءا من قدرات القاعدة في الذكرى الرابعة لهجمات 11 أيلول، لنرى موقع القاعدة في خضّم الحرب على الإرهاب، وهل استطاعت الولايات المتّحدة إضعاف هذا التنظيم والقضاء عليه؟ أم أنه مازال قادرا على الضرب والرد في أي مكان؟ وما هو وضع أمريكا في الحرب على ما يسمى الإرهاب؟.

* هل القاعدة أقوى أم أضعف بعد هجمات نيويورك وواشنطن؟

يعتمد الجواب على هذا السؤال على نظرة المحلل "لتنظيم القاعدة"، وما إذا كان يعتبره تنظيما هرميا، لأعضائه تراتبية قيادية وتنظيمية، أم أنه خلاف ذلك. يرى معظم المحللين المتابعين لموضوع القاعدة أن هذا الأخير قد تحوّل إلى نظام اللامركزية في إدارة الهجمات بعد شن الولايات المتّحدة الحرب

على أفغانستان، وهم من هذا المنطلق يعتبرون أن تنظيم القاعدة تلقى ضربات موجعة أدت إلى فقدانه توازنه وبالتالي إضعافه إلى أقصى حد. ومن خلال متابعتنا للتحليلات وجدنا أن القائلين بهذا الرأي يستندون إلى عدد من الحجج نذكر منها:

1- إن تنظيم القاعدة قد فقد قاعدته الأساسية "أفغانستان"، وبالتالي خسر أهم ما كان يخوّله إدارة الصراع مع أمريكا من حيث إعداد الرجال والتدريب على السلاح وكسب المناصرين وتوفر المكان الآمن الذي يأوي أعضاء التنظيم، وبالتالي أصبح إفراده مطاردون، وانتقلوا من مرحلة الهجوم إلى الدفاع.

2- أنّ تنظيم القاعدة قد تلقى ضربات عديدة أفقدته ترتيبه الهرمي وقضت على شكله التقليدي، وبالتالي فككته وشتته، وذلك عندما استطاعت أمريكا وحلفائها قتل وأسر أبرز قادة التنظيم العسكريين والإستراتيجيين أمثال: أبو زبيدة (زين العابدين محمد حسين)، خالد شيخ محمد، سيف العدل (الحقيقي محمد إبراهيم مكاوي)، رمزي بن الشيبة، أبو حفص (محمد عاطف) وغيرهم.

3- إن التنظيم قد تعرّض لحصار مالي أفقده القدرة على تمويل عملياته أو تحويل أو تهريب أي أموال، حيث تمّ إصدار قوانين لتجميد ومصادرة أي رصيد مالي يشتبه به، وقد تمّ إيقاف وتجميد أموال العديد من الشركات والجمعيات الخيرية والخاصة وحتى أموال الأفراد بحجّة هذه القوانين، وهو ما أثر سلبيا على قدرات التنظيم المالية لتمويل العمليات.

4- إن قادة هذا التنظيم في حالة فرار مستمرة وهم غير قادرين إطلاقا على التأثير في مجرى الأحداث وإعطاء التعليمات.

إلا أنه من جهتنا نرى أن القاعدة من حيث الشكل تنقسم في حقيقة الأمر إلى قسمين:

* القسم الأوّل، يمكننا أن نطلق عليه اسم "تنظيم القاعدة"، وهو تنظيم مركزي يحتوي على العامود الفقري والهيكل القيادي للقاعدة، ومشكل من مواقع وتراتبية وأدوار وله فروع في العديد من البلدان وأبرزها حتى الآن تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين ويتزعمه أبو مصعب الزرقاوي. وفعلا، فقد تلقى هذا القسم ضربات موجعة ولكنّه، وعلى عكس ما يعتقد البعض، لا يزال فاعلا ومؤثرا، ورغم تشتت قياداته إلا أنه قادر على إصدار التعليمات ومتابعة الأحداث بدقّة من موقع بعيد يجعله أكثر قدرة على إصدار تعليمات مدروسة ومستوفية.

* القسم الثاني: يمكن أن نطلق عليه اسم "أنصار القاعدة" أي المتعاطفين معها، وهؤلاء كثر وقد عوّضوا عن الخلل الذي أصاب الهيكل الأساسي للتنظيم عندما تلقى ضرباته الموجعة، وهم يتصرفون بشكل لا مركزي مستوحى من فكر وإيديولوجية ومنهج التنظيم الأساسي. ولهؤلاء دور أساسي ورئيسي في عملية التشويش على ما يسمى الحرب على الإرهاب، وسبّبوا تعقيدات غير متوقعة لأمريكا وحلفائها، حيث ما عاد بإمكانها التركيز على جبهة واحدة في محاربتهم، لأنهم منتشرون في جميع البلدان والأماكن، والمشكلة الكبرى أنهم غير معروفين، فقد يكون أي إنسان عادي من أنصار القاعدة، فكيف سيتم كشفه؟!!

هذا التقسيم للقاعدة برأينا أكسبها قوّة، وأصبحت أكثر قدرة على التأثير، وأنصارها بازدياد يوما بعد يوم رغم كل ما يقال عن جهود محاربة الإرهاب، لأنهم مرتبطون مباشرة وبشكل عكسي

مع الجرائم الأمريكية، بمعنى أنه كلما زاد الظلم الأمريكي والإرهاب الأمريكي كلما زاد عدد هؤلاء واتّسعت رقعة انتشارهم، وبالتالي صعبت مهمّة ملاحقتهم. والقول أن تنظيم القاعدة لم ينفّذ عملية كبرى بعد 11 سبتمبر، وهو دليل ضعف، كلام في غير محلّه لعدد من الأسباب منها:

1- إن عملية 11 سبتمبر احتاجت إلى حوالي 4 أو 5 سنوات من التحضير والتمويل ولم تأت نتيجة تخطيط ليلة وضحاها، وإذا أخذنا بعين الاعتبار المصاعب الحالية والاستنفار العالمي، فإنه لو كان هناك أصلا خطّة للقاعدة لتنفيذ ضربة كبيرة، فإنه لم يحن وقتها، فلم تمضي خمس سنوات على الضربة الأولى.

2- خلال هذه الفترة نفّذ تنظيم القاعدة عددا من العمليات وإن كانت أقل حجما، إلا أن تأثيرها كان كبيرا، ومن هذه العمليات عمليتي مدريد ولندن.

3- ليس من الضروري تنفيذ ضربة كبيرة حاليا، خاصّة أن تنظيم القاعدة قد نجح في إستراتيجيته، والتي دفعت أمريكا لصعود إلى الهاوية، وهو ما سنشرحه الآن.

يقول أسعد دوراني مدير جهاز الاستخبارات الداخلية الباكستاني السابق في هذا الصدد بأنه على قناعة بأن تنظيم القاعدة لا يقل قوة عن الولايات المتحدة الأمريكية، والدليل أنه استطاع حتى الآن إثبات قدرته على الصمود في المعركة العالمية التي تقودها واشنطن ضد 'الإرهاب'. وقال أسعد دوراني الذي كان يترأس الاستخبارات الداخلية الباكستانية المعروفة بـ'ISI': إذا كان تنظيم القاعدة قد استطاع تدبير هجمات مثل تلك التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر عام 21 ، ثم بعد مرور هذه

السنوات ما زال قويًا متماسكًا يشن هجمات جديدة في مناطق غير متوقعة في جميع أنحاء العالم، فإنه بكل تأكيد لا يقل قوة عن الولايات المتحدة إذا نظرنا إلى معايير الحكم على موازين القوة بشكل مختلف.

وفي حديثه لصحيفة دايلي تايمز منذ مدّة، رفض الجنرال الباكستاني أسعد دوراني صحة الأنباء التي تقول: إن قيادات القاعدة باتت غير قادرة على التواصل والتنسيق فيما بينها، وتساءل: لو كان هذا الادعاء صحيحًا، فكيف يمكن للقاعدة أن تنفذ عمليات ضخمة وهائلة مثل تلك التي وقعت في مدريد أو غيرها؟

* القاعدة توقع أمريكا في الفخ المنصوب لها بالإستراتيجية غير المباشرة:

عندما قام تنظيم القاعدة بتنفيذ هجمات 11 أيلول لم يكن هدفه الضرب والتوقف. بل إن المؤشرات توحي بأن التنظيم كان يريد أن تقوم أمريكا بما تقوم به حاليا، لأن كل ذلك يصب في مصلحته على المدى البعيد، ويؤدي إلى استنزاف القدرات الأمريكية العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية عبر ما يسمى بـ"الإستراتيجية غير المباشرة".

وتعتبر الإستراتيجية غير المباشرة من الإستراتيجيات الدولية المعاصرة، ومضمونها: تفادي الدخول في مواجهة مباشرة أو حاسمة مع العدو انتظارا لظروف تكون أكثر ملائمة، وتعتمد الإستراتيجية غير المباشرة على توريط الخصم في معارك جانبية بصورة أساسية تستنزف قواه وموارده وترهق معنوياته

وتنال من صلابته وتماسكه وتضعف من إمكاناته وقدراته في أماكن المواجهة الرئيسية.

ومن الوسائل التكتيكية التي تركّز عليها الإستراتيجية غير المباشرة، أسلوب التحديات التدريجية أو المرحلية الذي يقوم على تفجير الصراع هنا وهناك (وقد تطوّعت أمريكا وفتحت بنفسها عددا من الجبهات)، لكن في إطار إستراتيجية محسوبة ضدّ الخصم يخدم الهدف النهائي من وراء هذا الصراع. ويؤدي هذا الأسلوب إلى الاستفادة من تباطؤ الدولة المستهدفة بهذه الصراعات في الاستجابة الفعّالة للأحداث ولخطورة التحديات، مما يؤدي إلى انهيارها في النهاية.

الهدف من الضربة الأولى للقاعدة كان تسليط الضوء على المعركة والمشكلة مع أمريكا، ومن ثمّ دفع الفيل الأمريكي واستفزازه للإقدام على ردّة الفعل، وقد حصل ذلك بالفعل فقامت أمريكا باحتلال أفغانستان ومن ثمّ العراق، ولكن كيف استفاد التنظيم من ذلك؟:

1- كسب التنظيم مزيدا من المناصرين الذين يندرجون في "القسم الثاني" الذي تحدّثنا عنه آنفا، وأثبت للناس صحّة نظريته من أن أمريكا تريد الهجوم على الدول الإسلامية واستباحة خيراتها وثرواتها.

2- استفاد التنظيم من انتشار الجيش الأمريكي بما يتجاوز قدراته، وبالتالي أصبح من السهل على التنظيم إصابة الأهداف الأمريكية من جنود ومدرعات ودبابات وطائرات في الأراضي التي يحتلها، وهو ما كان غير ممكن فيما لو بقي الجيش الأمريكي داخل ثكناته.

3- أن هجمات 11 سبتمبر وردّة الفعل الأمريكية قد أكسبت التنظيم سمعة كبيرة وحطّت من قدرة أقوى دولة في العالم، وأصاب أفرادها بانهيار نفسي، يدفع إلى عدم التفكير الصحيح فيما يجري، وذلك بسبب المذلّة والصدمة، وهو ما يجري الآن بالفعل ويفسّر تخبط الإدارة الأمريكية منذ أحداث 11 سبتمبر وحتى اليوم.

4- وهو ما لم ينتبه إليه كثيرون أو لم يولوه أهمية، أن العمق الأمريكي الآن أصبح مكشوفا، بمعنى أن لا شيء يحمي الأراضي الأمريكية الآن، فجيشها منشر في الخارج وأي ضربة كبرى مماثلة لهجمات 11 أيلول تنفّذ مستقبلا ستكون كفيلة بانهيار الولايات المتّحدة الأمريكية، فإن لم يكن الانهيار العسكري أولا فبالتأكيد سيكون الاقتصادي الذي ساهمت هجمات 11 أيلول في تشويهه لتصبح أمريكا للمرّة الأولى في التاريخ مدينة بهذا الكم الهائل من الأموال التي تسبب مشاكل مستعصية لها، (مثال على هذه النقطة إعصار كاترينا).

* هل تحول الاحتياطات الأمنية الأمريكية دون هجمات جديدة؟

أظهر استطلاع للرأي نشر يوم الأربعاء 2 يوليو، أن حوالي ثلاثة أرباع سكان نيويورك يتوقعون تعرض مدينتهم لاعتداء مماثل لذلك الذي وقع في لندن، لكن قلة منهم ينوون تغيير عاداتهم. والاستطلاع الذي أجرته جامعة كوينيبياك يؤكد أن 72% من النيويوركيين عبروا عن "قلق شديد" أو "بعض القلق" إزاء احتمال تعرض نظام النقل لديهم لاعتداء مشابه لاعتداءات لندن.

واعتبر نصف الأشخاص الذين استطلعت آراؤهم أن مدينتهم غير مجهزة بشكل مناسب لمنع مثل هذا الهجوم. وقال موريس كارول مدير معهد الاستطلاع في الجامعة، إن ذلك لا يعني أننا "نعتقد أن نيويورك محصنة، حيث إن الغالبية بيننا تعتقد أن هجوما إرهابيا جديدا يمكن أن يقع، وقلة تعتقد أن المدينة مجهزة لمواجهة هذا الاحتمال".

ويمكننا القول إن هؤلاء الناس محقون، فلا شيء يستطيع أن يمنع وقوع أي عملية في نيويورك أو غيرها، والمسألة مسألة وقت وظرف لا أكثر، وما إن تنجح عملية واحدة فقط حتى تكون نتائجها كارثية على الولايات المتّحدة والغرب، وهذا ما أشار إليه الرئيس السابق لمكافحة 'الإرهاب' في البيت الأبيض ريتشار كلارك، الذي انتقد بشدة تصريحات بوش المتكررة بأن الإدارة الأمريكية تمنع وقوع هجمات في الولايات المتحدة بمكافحة 'الإرهاب' في الخارج، قائلاً: "إن ذلك ليس منطقيًا"، مذكّرا بتفجيرات مدريد ولندن، ومشيرا إلى أنه لا يوجد شيء يمنعهم من القدوم للولايات المتحدة".

* هل يعرف الأمريكيون الآن سبب الهجمات؟؟

اللافت للنظر فعلا في كل ما يجري منذ 11 أيلول 21 وحتى اليوم، هو أن الأمريكيين لا يعرفون أو بالأحرى لا يريدون أن يعرفوا السبب الحقيق والدافع الأساسي وراء هذه الهجمات والحرب الدائرة الآن، وذلك بكل بساطة لأن سياسات إدارتهم الهوجاء والظالمة وقوّة جيشهم الباطشة ومفاهيم زعمائهم التي تجعل من شارون رجل سلام، كل هذا كان السبب في اندلاع هذه الحرب، وليس هذا ما نقوله نحن فقط بل حتى العديد من المفكرين الأمريكيين البارزين ومنهم الأكاديمي الأمريكي وارد

تشرشل أستاذ في جامعة كولورادو الأمريكية، الذي يقول: "بالتأكيد أن ما تزرعه تحصده، وهذا ما حدث"، وأضاف: "إن ضحايا مركز التجارة العالمي لا يمكن اعتبارهم أبرياء ووصفهم بأنهم 'إيخمان صغار' (في إشارة إلى أدولف إيخمان مجرم الحرب العالمية الثانية النازي)، وصحيح أنهم كانوا مدنيين بطريقة أو بأخرى، لكن أبرياء، لا أصدق هذا، إنهم كانوا يمثلون فيلقًا تكنوقراطيًا في قلب الإمبراطورية المالية الأمريكية". هذا كلام الأكاديمي الأمريكي وليس الظواهري أو ابن لادن.

ومن خلال متابعتي للأسباب التي يحاول الأمريكيين وأعوانهم تسويقها على أنها السبب الرئيسي وراء الإرهاب، وجدت أنها لا تمت إلى السياسة الأمريكية بصلة، وأن الهدف من تسويقها هو التعتيم على الحقيقة وتزييف الواقع، ونلخصها فيما يلي:

1- الادّعاء أن الفقر هو سبب رئيسي وراء الإرهاب.

2- الادّعاء أن الدين الإسلامي هو سبب رئيسي وراء الإرهاب.

3- الادّعاء أن التخلّف الفكري و العلمي للشباب هو السبب الرئيسي وراء الإرهاب.

4- الادّعاء أن الحسد والغيرة من طريقة عيش ونمط الحياة الغربية هو دافع من دوافع الإرهاب.

5- وقد وصل الأمر إلى ادّعاء البعض بأن تركيبة الجينات العربية تحمل معها حسّا كامنا بضرورة إرهاب الآخر!.

ولم يتركوا أي حجّة إلا وساقوها كدافع من دوافع الإرهاب، عدا سياساتهم ودعمهم للصهاينة وظلمهم وتغطرسهم.

* ماذا يجب أن يقال؟

خلاصة القول، إنه ما لم تعترف أمريكا بأخطائها وبأنّها المسئولة عن الفظائع والمجازر التي ترتكب بحق المسلمين أينما كانوا، فإن الحرب على ما يسمى الإرهاب لن تؤدي إلا إلى ازدياده، وأمريكا هي الخاسرة في النهاية على المدى الطويل، ونحن لا نستطيع أيضا أن ندين ونستنكر دائما ونقدّم شهادات حسن سلوك دائما، بينما يقوم الأمريكيّون بكل وقاحة وتسلّط بدعم الصهاينة في فلسطين وبقتل أهلنا في العراق وتدمير الحضارة والتاريخ فيها وسفك دماء المسلمين في أفغانستان. ومن العار أن يطالبنا المفكرون والمثقفون العرب بذلك، في حين أنّنا نباد بصمت وخذلان الحكام والعلماء والمفكرين.

ولنستمع إلى ما يقوله "مايكل شاور" المسئول الرفيع في وكالة المخابرات الأميركية، السي آي إيه ومن الذين أشتغل في ملفات الإرهاب ومتابعاتها لسنوات طويلة في كتابه "Imperial Hubris"، والذي استقال بعد إصداره، وهو الأكثر جرأة حتى الآن في إدانة السياسة الأمنية والعسكرية والخيارات التي تبنتها إدارة الرئيس الأميركي الحالي جورج بوش إزاء مسائل العنف والإرهاب وكل ما يواجه الولايات المتحدة من تحديات راهنة. يقول شاور: "الغرب سيخسر الحرب على الإرهاب، لأننا طالما أننا لا نحترمهم (المسلمين) سنموت بأعداد كبيرة". وأشار شاور إلى أن "زعيم تنظيم القاعدة، الذي أعلن مسئوليته عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر 21 ، رجل عظيم لأنه أثر على مجرى التاريخ"، وأوصى في مقابلة أجرتها معه شبكة التلفزيون الأمريكية 'سي بي إس' باحترام أسامة بن لادن حتى لا يتسبب في قتل المزيد من الأمريكيين.

الكرة الآن في ملعب أمريكا والغرب فإما أن يصححوا الوضع، وإما أن يتحملوا مسؤولية أعمالهم، وكما يقال "العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم".